القسم الثالث

امهات المدن والقرى بصقلية

ومعالمها وآثارها

بالرمة

من امهات المدن قديماً وحديثاً ؛ ومن اجل واجمل الحواضر فى كل الاقطار والامصار ؛ جمال في المناظر واعتدال في الطقس ومياه دافقة وحدائق وخمائل ، ومروج وبساتين وقصور شاهقة ودور فسيحة الرحاب وآثار باقية مما تركه السلف للخلف .

كان اسمها اليوناني « بانرموس » وكانت مدينة كنعانية قرطاجنية حساً ومعنى ؛ ولقد رأينا في المقدمة التاريخية مدى ما بذلته قرطاجنة من جهد عنيف الاحتفاظ بالجزيرة وجوهرتها الفريدة ؛ لكن بالرمة وقد استحوذت عليها روما لعدة قرون ، قد احتفظت بمركزها الممتاز واصبحت من ابهر دور التاج الروماني انما قد بلغت بالرمة اوج عزتها وسدرة منتهى رونقها وبهائها ، عندما اتخذ منها الامراء المسلمون ثم ملوك بني الحسن ، عاصمة لملكهم ؛ واصبحت مركزاً من اهم مراكز الحضارة والنور بالبحر المتوسط ، وارتفعت بتجارتها وصناعتها وعلومها الى مصاف عواصم الاسلام الكبرى .

يسكن هذه المدينة اليوم نحو من ٣٩٠٠٠٠ نسمة ؛ حول مرسى هو من اهم مراسى ايطاليا وقسمه القديم يدعى الى يومنا هذا « القلعة » La Cala على مقربة من آثار القصر العربي القديم « قصر العمارة » Castellammare

ولم تبق حادثات الايام والحروب المتوالية على كثير من آثار الكنعانيين

القرطاجنيين ، ولا من آثار الرومان والعهد الاسلامي ، الا ان آثار النرمانيين وهي من انشاء العرب قد بقيت قائمة الى يومنا هذا شاهدة بعظمة وحسن ذوق منشئيها وفى بالرمة العتيقة لا تزال حارات عديدة تحمل الطابع الافريقى على شكل مدنها الاسلامية بهذا الشمال ، ولا تزال هنالك حارة تدعى «Attarini» كانت بلا ريب حارة او سوق العطارين .

قصر الفوارة — هو من اهم آثار بالرمة الاسلامية ؛ ولقد ترنم بذكر محاسنه الشاعر عبد الرحمان بن ابي العباس حينما يقول :

فوارة البحرين جامعة المنى * عيش يطيب ومنظر يستعظم

يقم هذا القصر الشامخ الذرى فوق جزيرة تحيط بها بركة صناعية من جهات ثلاثة ، ولقد شاده وبالغ فى تزويقه الامير جعفر ؛ من ملوك بني الحسن ، فيما بين سنتى ٩٩٧ و ١٠١٩ ميلادية ، واتخذ منه هو وخلفاؤه من بعده مقراً للترف والنعيم .

وعندما ضرب الدهر بضرباته وتحطم سلطان المسلمين هنالك ، اصبح قصر الفوارة مقر اللهو واللعب والخلاعة لملوك النرمانيين ومن تبعهم ؛ ثم اخفي الدهر على هذا القصر عندما اصبحت الجزيرة العوبة بين ايدي الغاصبين من ملوك اروبا فلم يبق منه اليوم الا الخرابات وكنيسة صغيرة شادها المسلمون للملك رجار وبعض اقبية وغرف ؛ وحوالي القصر لا تزال ترى البناء الذي يحيط بالبركة الصناعية ليحبس بها الماء ، ولا تزال ترى الحنايا الاسلامية الثلاثة التي كان الماء يجلب عليها للبركة المذكورة .

قصر العزيز — ويدعوه الاروبيون لازيزا La Ziza شاده ليتخذ منه مقراً لملكه وسلطانه ، الملك غليام الاول فيما بين سنتي ١١٥٤ و١١٦٦ م ، بواسطة مهندسين وبنائين ونقاشين من المسلمين فكان القصر آية من آيات الفن المعماري

الاسلامي ، ولقد ابقت الايام على اكثره ، ولم يحل به ما حل بقصر الفوارة من التخريب ، وهنالك ما شئت من باهر الاقواس الهندسية وبديع النقوش الخلابة والكتابة الكوفية على النمط الهندسي حول الابواب والتقاويس ، وعيون جارية تغذى فوارة فى وسط البهو الاكبر ثم يتكون من ذلك سيل لطيف من الماء يخترق القاعة ثم يختفي تحت ابوابها .

قصر القبة — هو بناء على شاكلة قصر العزيز، اتم صنعه البناؤون المسلمون حوالي سنة ١١٨٠ م ، ولقد تحطم اكثره ويالاسف ، ولم تبق الا بعض جدرانه وقاعاته قائمة ، تذكر الايام بما سلف لها من مجد ، وعلى بعض الجدران ترى آثار الفسيفساء البديعة التنسيق ، وكتابة على النمط الكوفى ذات جمال خلاب ، ونقوش مدهشة على قواعد الرخام ، ومن اجمل ما ابقت عليه عوادي الايام بهذا القصر قاعة القبة ، وهى حسبما يدل عليه اسمها قاعة فسيحة الارجاء تعلوها قبة منمقة بنقوش خلابة من الرخام الصناعى .

الكنيسة الكاتدرائية الكبرى — هى من اهم بدائع الفن والجمال بيالرمة شيدت سنة ١١٨٥ على يد صناع من المسلمين ؛ وكانت خليطا من الفن العربي والفن الغربى ، انما تغلب عليها الصبغة العربية على ان قسماً منها شيد على انقاض مسجد جامع لاتزال هيأته على حالها تقريباً وعلى ابوابها وبين اقواسها رسمت بالجص آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى .

القصر الملوكي — آية خالدة من آيات الفن والجمال ، انشأه الملوك المسلمون فكان مقر الدولة والامارة ، ثم استقر به ملوك النرمان بعد ذلك ، فزادوا في مساحته واضافوا اليه ، بواسطة البنائين المسلمين اقساماً اخرى ، ولا يزال قائم الذات يذكر الخلف الغافل بعظمة تاريخ السلف الحافل ، ومن روائع اقسام هذا القصر الملوكي : الكنيسة الصغرى التى ابتناها العمال المسلمون بامر الملك رجار

الثانى ، فيما بين سنتى ١١٣٢ - ١١٤٠ ، فهي درة وضاءة وسط عقد الآثار الاسلامية الخلابة ، ومن ابدع ما يراه قاصدو بالرمة ، تشد اليها رحال السائحين من كل قطر ؛ ومن اغرب ما يراه المشاهد هنالك سقفاً بديع الشكل يخلب الابصار وهندسة غريبة في بناء النوافذ ، تكسب النور حينما ينعكس بعضه على بعض رونق الموسيقى وروعة الشعر الرقيق ، ولا سبيل للاطناب فى وصف ما هنالك من نقوش (نقش حديدة) وفسيفساء خلابة الالوان .

ومن جملة البدائع المحفوظة بهذه الكنيسة الفنية ضمن ذخائرها الغنية صندوق من صنع المسلمين كله قطعة من عاج منقوش ؛ وعلى مقربة من القصر الملوكي و كنيسته توجد كنيسة القديس يوحنا ، وقد بناها الصناع المسلمون كذلك بامر الملك رجار الثانى ؛ على النمط العربي الخالص ، وضمن هذه الكنيسة يوجد مسجد اسلامي قديم دخل فى صلب الكنيسة و بقي على حاله غير متنافى فى هندسته مع ما اضيف اليه .

المتحف الكبير — من أجل ما يرى ايضاً ببالرمة متحفها الاثري الزائم الذى جمع فاوعى ، قيمة فنية كبرى وجمال عرض وبديع تنسيق ، وفيه قاعة اسلامية عربية عرضت فيها بدائع ما تركه الصناع المسلمون هنالك من تحف نادرة وطرائف ثمينة من اوانى وزخارف حديدية و بدائع من الخزف والبلور والرخام وغير ذلك من ادوات المنازل وكماليات الترف والنعيم .

هذا علاوة على ما فى المتحف المذكور من آثار الكنعانيين والقرطاجنيين ومن آثار الاغريق والرومان والنرمان وغيرهم .

وفي بالرمة ، دون ذلك ، عدة من متاحف اخرى تتعلق بالتاريخ الصقلي ؛ وفيها المكتبة البلدية التى تشمل ما يزيد عن مايتي الف مجلد ، منها نحو الثلاثة آلاف مخطوط .

ضواحي بالرمة — على نحو ستة اميال من بالرمة توجد مدينة القاموق

الاسلامية الاصل والتى احتفظت باسمها فهي تدعى اليوم Alcamo وسكانها يتجاوزون الخمسين الفاً ، وحاراتها القديمة تذكر بايام المسلمين ؛ وعلى نحو الخمسين ميلا من بالرمة توجد مدينة الزقاق ، وقد احتفظت باسمها كذلك فهى اليوم Siacca وهي من اهم المدن الاثرية الصقلية ، لا يزال اغلبها على حاله كما كان ايام دولة المسلمين ودولة النرمان .

مسينا

من اهم المدن الصقلية واجملها موقعاً ؛ يسكنها اليوم ما يزيد عن ١٨٠ ٠٠٠ نسمة ؛ ومرساها من اوسع مراسى البحر الابيض المتوسط واكثرها حركة ، وتحيط المدينة بالمرسى فى استدارة بديعة ؛ حيث ترى عقداً ثمينا من القصور الخلابة الجمال يحيط بجيد حسناء فاتنة . لكن نكبة مؤلمة اصابت المدينة سنة ١٩٠٨ (٢٨ دسامبر) حيث اغتالها زلزال رهيب دام ٣٢ ثانية ، فحطمها تحطيماً فظيعاً وفتك باهلها فتكا ذريعاً ؛ فمات فيها وحواليها ما يزيد عن المائة الف نسمة ؛ ثم استرجع الانسان حقوق حياته ، فاعاد بناء المدينة على انقاض الخرابات ، واصبحت مسينا الحديثة تكاد تعادل مسينا العتيقة بهاء ورونقا وجمالا ، ولهذه الحادثة يشير شاعر النيل حافظ ابراهيم بك رحمه الله حيث يقول فى وصف المدن الصقلية الطليانية :

ارضها جنة وحور * وولدان — وملك كبير
تحتها والعياذ بالله نار * وسعير ومنكر ونكير

وليس فى مسينا ما يدل على انها بقيت بعض قرون مركزاً من اهم مراكز العمران الاسلامى بصقلية ، ولعل الحروب المتوالية فيها وفيما حواليها بين المسلمين والروم ؛ وبينهم وبين الايطاليين ، ثم النرمانيين قد جعل آثار المسلمين هنالك منعدمة الوجود .

من اعجب ما فى مسينا ؛ مقبرة ضحايا الزلزال المذكور آنفا ، فقد جعلت هذه

المقبرة فى ابدع مكان مشرف على المدينة ، يرى منه منظر قد اتفق الباحثون على انه من اجمل مناظر ايطاليا وصقلية معاً ، وغرست فيها حديقة جمعت في تناسق بديع كل انواع الاشجار والزهور والرياحين .

ومن اهم ما يرى بها متحفها الفني الغني ؛ وليس به الا القليل النادر من آثار المسلمين ومنها فى الصالة رقم ٥ صندوق بديع الصنع حسن التركيب .

شيفالو

اما شيفالو ؛ فهى مدينة صغيرة يسكنها جماعة من الصيادين ، لا يتجاوز عدد سكانها العشرة آلاف ، انما تمتاز بوجود كنيسة كتدرائية هي بلا ريب اجمل واقدم كتدرائيات صقلية ، امر ببنائها الملك رجار سنة ١١٣١ ، وابتناها كما ابتنى غيرها فى ذلك العهد البناؤون المسلمون ، وبالغوا فى تزويقها وتنميقها ، وفيها اقدم واجمل فسيفساء بالارض الصقلية وتجاه الكنيسة متحف صغير بديع فيه مجموعة كاملة من النقود الصقلية فى مختلف العصور ؛ ومن بينها بل ومن اهمها النقود الاسلامية . وعلى نحو ميل من المدينة وفوق صخرة ترتفع ٢٦٩ متراً توجد آثار قصر وصهريج من آثار المسلمين .

ترمينى

واما مدينة ترمني ولا تبعد عن بالرمة لا ١٩٦ ميلا وسكانها نحو العشرين الفا ، فهي تكاد تكون مدينة اسلامية خالصة بحاراتها وازقتها ودورها وطريقة العيش فيها ، كثيرة الحركة فيها حمامات حارة وفيها متحف بلدي يضم كثيراً من الآثار والنقوش والنقود الاسلامية .

مازرة

لا يزيد سكانها اليوم عن ٢٥ الفا ، ولم يبق بها ما يكشف الستار عن ماضيها

الاسلامي الحافل لولا ما يدل على مشاركة البنائين المسلمين في اقامة هيكل الكاتدرائية وبعض الكنائس الصغرى التي أنشيء اكثرها على انقاض المساجد الاسلامية عندما دالت دولة المسلمين هنالك .

مرسى علي

كانت هذه المدينة ايام المسلمين من اكثر المراسي حركة واكبرها تجارة لانها كانت نقطة الاتصال بين صقلية والبلاد الافريقية وقد فقدت المدينة اهميتها منذ انقطعت الصلات بين القطرين ، التونسي والصقلي ، فلم تبق لمرسى علي الا اهميتها الحربية ، وذكرياتها التاريخية ؛ وسكانها الآن (٥٧٠٠٠)

تجاه مرسى علي ، وعلى بعد نحو ٨ كيلومترات منها توجد جزيرة معطية القرطاجنية التى سبق ذكرها في المقدمة التاريخية وكان المسلمون يدعون هذه الجزيرة «المعزية» ولقد اجريت حفريات فى هذه الجزيرة ووقع اكتشاف الكثير من آثارها القرطاجينية و مرساها العتيق .

اطرابنش

تستدير هذه المدينة حول مرساها في شكل هلال ؛ وسكانها يبلغون ٧١٠٠٠ نسمة وليست بها حركة تذكر كما انه لم يبق بها ما يذكر بايام المسلمين ، لولا ما هو موجود بمتحفها من قطع النقود الاسلامية و بعض اقمشة من صنع المسلمين .

قلعة النساء

لم يبق لها من القديم الا الاسم ، اشتهرت اليوم بتجارة الكبريت ويكادسكانها الذين يبلغون ٧١٠٠٠ لا يشتغلون الا بذلك وبما يمت له من صناعة وبالمدينة متحف صغير فيه بعض آثار اسلامية ليست بذات اهمية ، والى جانب المدينة توجد آثار القلعة الاسلامية التي تدعى اليوم قصر بياترا روسا ؛ ومن هذه القلعة يشرف

الانسان على قصريات التي لم يبق بها اليوم شيء من آثار المسلمين ، انما على مقربة منها (٣ كيلومتر) توجد «قلعة السبت» Calta Cibetta وسكانها نحو السبعة الآف ويمكن اعتبار هذه المدينة اقدم مدن صقلية اليوم من حيث بناؤها الذي بقي على اصله منذ القرون الوسطى و من حيث لباس اهلها وتقاليدهم التى بقيت فى معزل عن الحياة الحاضرة .

طبرمين وضواحيها

اذا استثنينا جمالها الطبيعي ومركزها الممتاز بالنسبة للمتسوحين فاننا لانجد فى طبرمين اهمية من ناحية التاريخ الاسلامي ؛ ولعلك تذكر ان المسلمين لم يحتلوا مدة طويلة هذه المدينة التي كانت باستمرار معقل المقاومة البزنطية حتى اذا تمكن المسلمون من ناصيتها نهائيا سنة ٩٠٢ ميلادية دكوها دكا كي يقطعوا آخر امل للروم فيها ؛ وقد بقيت بها للآن ماثار قصر قديم يدعى « قصر المولى » Mola يشرف على المدينة وضواحيها .

ومن المدينة التى لا يجاوز سكانها اليوم الثمانية ماالاف نسمة ، يسير الانسان نحو قرية لاتزال عربية اسما هي « القنطرة » Alcantara على مجرى الوادى المدعو بالقنطرة ايضا ، وهنالك فى تلك الضواحى مدينة لا تزال كذلك تحمل اسما عربيا وتكاد ديارها تحمل الطابع العربي الاسلامي ايضا وهي قرية « الزعفرانة » Zafferana

قطانية

ان كانت هذه المدينة تعتبر اليوم ثاني مدن صقلية بعد بالرمة ، وان كان عدد سكانها يجاوز ٢٢٧٠٠٠ ؛ وان كانت بناياتها الضخمة وعماراتها البديعة تجعلها فى مصاف المدن الكبرى ؛ فانها رغم كل ذلك لاتشبع نهم الباحث المسلم لأنها لا تحوى شيئا يذكر من ماثار المسلمين ، وذلك لانها علاوة على التخريب الذى لحقها كما لحق كل مدن صقلية من جراء حوادث الاحتلال النرماني قد اصابها

زلزال عنيف حطمها تحطيماً ذريعا سنة ١٦٩٣ ؛ فلم يبق بها عمراناً واهلك فيها ١٦٠٠٠ نسمة .

اهم ما يراه الباحث فيها اليوم متحفها الذي جمع فيه القطانيون كثيراً من ماثار صقلية ومجموعة ثرية من الصور والرسوم ؛ ومكتبة فيها نحو الخمسين الف مجلد منها نحو الخمسمائة مخطوط نفيس والفي رق فيها الكثير من اوائل العهد النرماني

سرقوسة

روعة وجمال وبهاء وجلال ؛ هي مهد الذكريات الاغريقية والقرطاجنية ، يهيمن عليها خيال ارخميدس العظيم ؛ سكانها اليوم نحو من ٧٠ الفاً وماثارها السابقة للعهد الاسلامي غنية ثرية ؛ وبها متحف يكاد يكون مختصاً بدراسة ماثار ومدنية شعب الصيقول ، وبدائع من صنع المدنية الاغريقية والفنيقية ؛ انما ليس بها ما يشبع نهم الباحث عن التاريخ الاسلامي ، واهم ماثارها على الاطلاق هو المسرح اليوناني الشهير الذى ابتناه الملك هيارون حورين سنة ٤٧٠ ق . م ؛ وهو اهم ما تركته لنا ايدي الزمان من مسارح الاغريق وتبلغ دائرته ١٣٨ متراً .

نوطس

كانت اثناء التاريخ الاسلامي مركز ولاية ، وكانت ذات اهمية كبرى اسسها الصيقوليون ووسع دائرتها المسلمون ، واستمرت مدينة اسلامية فى سائر مظاهرها الى سنة ١٦٩٣ حيث تحطمت بصفة تامة وهجرها سكانها فابتنوا على مقربة منها مدينة جديدة ؛ انما فى ماثارها رسم هيأتها الاسلامية السابقة ؛ واما المدينة الجديدة فليست من الناحية الاثرية بذات اهمية يسكنها اليوم ٣٣٠٠٠ من الناس .